الهُويّة والغيريّة
في سيرة إغناطيوس دي لويولا وكتاباته

الأب أولڤر برج أوليڤييه اليسوعيّ(*)

المقدّمة

سأحاول، في هذه الدراسة، أن أبحث في مسألة الهُويّة والغيريّة عند إغناطيوس دي لويولا، مقتصرًا على سيرته وكتاباته، فلا أدّعي بأن أستنفد الموضوع. في القسم الأوّل، سأتوقّف على سيرته، كما نجدها في ذكرياته الشخصيّة، لنرى كيف أنّ انفتاحه التدريجيّ على الآخر قد ساعده على أن يتفهّم ويعيش بوجه أفضل هُويّته الخاصّة ورسالته.

وفي القسم الثاني، سأبحث سريعًا في مؤلّفاته: الرياضات الروحيّة، واليوميّات الروحيّة، والقوانين التأسيسيّة، والرسائل، متوقّفًا، قبل كلّ شيء، على وجه خاصّ من صلته بالآخرين، وهو عرفان الجميل الذي يميّز في الأساس شخصه وروحانيّته.

I – الذكريات الشخصيّة

يتحوّل إغناطيوس من رجل معجب بنفسه إلى رجل من أجل الآخرين

١– في قصر لويولا: الرغبة في الاقتداء بالقدّيسين

أ– سعيًا إلى المجد والإعجاب بالنفس: في خطاب ألقاه الأب

(*) Oliver Borg Olivier أستاذ في المعهد العالي للعلوم الدينيّة، جامعة القدّيس يوسف، بيروت.

جان-كلود دوتيل في أثناء انعقاد اجتماع لجماعة الحياة المسيحيّة في فرنسا، وصف القدّيس إغناطيوس بأنّه «رجل من أجل الآخرين»، مقتبسًا العبارة التي استخدمها الأب بدرو أرُّوبه حين تحدّث، العام ١٩٧٣، إلى خرّيجي معاهد التعليم اليسوعيّة عن مشروع رهبانيّتنا التربويّ. لكنّ إغناطيوس نفسه يُخبرنا، في مطلع ذكرياته الشخصيّة، بأنّ الأمور لم تكن دائمًا هكذا، ذلك بأنّه «حتّى السادسة والعشرين من عمره، كان رجلًا منهمكًا في أباطيل العالم، وكانت هوايته المفضّلة الفنون الحربيّة، تدفعه إليها رغبة عظيمة وباطلة في اكتساب الشهرة» (ص ٣١). فكان الآخرون مجرّد وسائل للوصول إليه، أو كانوا أشخاصًا يجب عليه أن ينافسهم لإثبات قدره الشخصيّ. وهذا ما سبّب إصابته بجرح في معركة بامبلونا.

وفي أثناء نقاهته، وقعت حادثة أخرى تُرينا إلى أيّ حدّ كان معجبًا بنفسه ومنشغل البال بمظهر جسده. فعلى أثر إصابته، أعاد الأطبّاء عظام ساقه المجروح إلى مكانها مرّة أولى، ثمّ كرّروا العمليّة نفسها، لأنّ العظام لم تعُد كما يجب إلى مكانها: «علمًا بأنّ عظمًا ركب على عظم آخَر، فتسبّب بقصر في الساق. وكان هذا العظم بارزًا بشكل بشع. فلم يُطق احتماله، لأنّه كان عازمًا على أن يتبع العالم، فظنّ أنّ هذا العيب قد يشوّه أناقته. فاستعلم لدى الجرّاحين عن إمكانيّة قطع هذا العظم. فأجابوه أنّ الأمر ممكن، وأضافوا أنّ الآلام ستفوق كلّ ما احتمله حتّى الآن... ومع ذلك فقد عزم على أن يتكبّد بملء إرادته هذا الألم المبرّح...» (ص ٣٣).

ب- التوبة إلى الله: كانت توبته وتحوّله إلى الله وإلى الآخرين تدريجيَّين. ففي أثناء نقاهته بقصر أخيه في لويولا، لم يجد كتبًا للمطالعة إلّا سِيَر القدّيسين وحياة المسيح. فاستماله ما يطالعه، ولا سيّما مآثر القدّيسين في ترويض النفس. وكان الآخرون عونًا وتشجيعًا له، لأنّه كان يقول في نفسه: «وماذا لو فعلتُ ما فعله القدّيس فرنسيس، أو ما فعله القدّيس عبد الأحد؟». فكان يفكّر في أشياء كثيرة وشاقّة، وإذا اعتزمها، كان يبدو له أنّه من السهل تنفيذها. وخلاصة أفكاره هذه قوله لنفسه:

«القدّيس عبد الأحد قد عمل هذا، فيجب عليّ أن أعمله، والقدّيس فرنسيس قد عمل ذلك، فيجب عليّ أن أعمله» (ص ٣٤-٣٥).

لا شكّ في أنّ مثال القدّيسين كان حافزًا له، لكنّه لم يفقد إعجابه بنفسه. فلا يريد الاقتداء بهم وحسب، بل التفوّق عليهم أيضًا. إنّ المرحلة الأولى من مراحل توبته تمرّ برغبة في الاقتداء بالآخرين: في ترويض النفس عند آباء البرّيّة، وفي الفقر عند فرنسيس الأسّيزيّ، وفي أعمال التوبة عند عبد الأحد، وفي الساعات الطويلة المكرّسة للصلاة العقليّة عند المتوحّدين... فنرى إذًا أنّ هُويّته الدينيّة تُصاغ بفضل الغيريّة، لأنّ أناسًا آخرين يساعدونه على ذلك، بكونهم قدوةً له، حتّى التمسّك بالحرف.

ج- حِسّ الخدمة عنده: إنّ آل لويولا مفطورون على حسّ الخدمة، ولقد سبق لإغناطيوس أن دلّ على أمانته في خدمة مَلِكه في پامپلونا. ولكنّه يحدّثنا أيضًا عن رغبته في خدمة «سيّدة لم تكن من نسب شريف عاديّ»: «ومن الأفكار الباطلة التي كانت تخطر في باله، فكرة سيطرت على قلبه، حتّى إنّه كان يحلم بها ساعتَين أو ثلاث، بل أربع، من دون أن يشعر. فكان يتخيّل ما يجب عليه أن يعمله في خدمة إحدى السيّدات والوسائل الواجب استخدامها ليبلغ مكان إقامتها، والأشعار التي سيُنشدها والكلمات التي سيقولها، وأعمال البطولة التي سيحقّقها في خدمتها. وكان مغرورًا حتّى إنّه لم يكن يرى كم تحقيق ذلك الأمر مستحيل...» (ص ٣٤).

قبل ذلك، حين كان في قصر لويولا، أخذ يحدّث الناس عن أمور الله، مع أنّ مشروعه في تلك الأيّام لم يكن ينطوي على أيّ طابع رسوليّ، إذ إنّه يفكّر في مشروع خدمة، ولكن، كما قال: «برغبة عظيمة في اكتساب الشهرة». فعند نهاية إقامته في لويولا، كان يريد أن يخدم الله ربّنا بإنجازه، لا بل بتجاوزه، مآثر القدّيسين، حيث تتغلغل، من غير وعي، رغبته في اكتساب الشهرة. فكيف يحوّل رغبته البشريّة هذه إلى رغبة روحيّة تصبح

فيها محبّة الله ومحبّة الإنسان أمرًا واحدًا؟

٢- منريسا: من محبّة النفس إلى محبّة الله ومحبّة الآخر

أ- إنهيار الترسيسيّة الروحيّة: في نهاية فترة النقاهة، غادر قصر أخيه، وبعد أن أحْيا سهرة صلاة في دير مونسرّاته، انطلق إلى منريسا، «حيث اعتزم أن يقضي بضعة أيّام في أحد المستشفيات وأن يدوّن بعض الأشياء في كتابه، وكان يحفظه بكثير من العناية ويحمله بوافر التعزية» (ص ٤٢-٤٣).

كانت منريسا في نظره مكانًا «يعامله الله فيه تمامًا كما يعامل معلّم ولدًا، وهو يعلّمه» (ص ٥٠). لكنّ الصورة الترسيسيّة التي كانت توفّر له لذّة في أن يصبح قدّيسًا عن طريق المآثر، انهارت شيئًا فشيئًا، ولم تبقَ هناك عقبات تحول بينه وبين الاختبار الذي يريد الله أن يوصله إليه. فلقد أخذ يقوم يومًا بعد يوم باختبار التأثّرات الروحيّة التي كان قد بدأ يدوّنها في لويولا. وكان يمرّ بفترات تجارب ووساوس. ففي التعليقات على الذكريات الشخصيّة، كتب الأب جان - كلود دوتيل: «كان إغناطيوس يشعر شعورًا غامضًا بأنّ سيرته لم تكن صادقة، فأخذ يبحث، في سيرته الماضية، عن أيّة خطيئة لم يعترف بها يكمن الكذب. ومن اختباره في منريسا، وضع تفكيرًا دقيقًا، وإن كان غير كامل، في شأن الوساوس (رياضات روحيّة، رقم ٣٤٥-٣٥١). ولكنّه، بناءً على ذلك، شهد تردّيًا تدريجيًّا في الصورة التي كوّنها عن نفسه والتي، بعد أن كانت إيجابيّة، أمست سليّة تمامًا»[1]. ومع ذلك، كان ينقاد يومًا بعد يوم لتعليم الله.

ب- مرحلة التعليم والاستيعاب الشخصيّ: إنّه يعيش على وجه أشدّ شخصيّة توبته وحياته الروحيّة، ويختبر ما نختبره بفضله في الرياضات

(١) IGNACE DE LOYOLA, *Récit, écrit par le Père Louis Gonçalves aussitôt qu'il l'eut recueilli de la bouche même du Père Ignace*, Suivi d'une lettre de Jacques Lainez (1547), Collection Christus, *Textes 65*, Desclée de Brouwer, Paris, 1987, p. 79, note n° 11.

الروحيّة، أي إنَّ أقانيم الثالوث الأقدس الثلاثة يتشاركون كلّ ما لهم وما هم، وإنَّهم يريدون أن يُشركوا في ما لهم وما هم كلّ خليقة، وإنَّ العالم أصبح مكان سكنى الله بيننا في شخص الابن. وحين يشاهد يسوع ملتفتًا في الوقت نفسه إلى البشر وإلى أبيه، يكتشف دعوته إلى «مساعدة النفوس»، فيقضي وقتًا طويلًا في منريسا، ثمّ في كلّ مكان، في التكلّم إلى الآخرين بِـ «أحاديث روحيّة». وتأصّلت دعوته في مشاهدة المحبّة التي تنحدر من الله إلى البشريّة. وهذه المحبّة ألهبته أوّلًا رغبة في العيش من أجل الله ومسيحه. لكنّه فهم أنّ خدمة الله ومسيحه تمرّ بخدمة إخوته وأخواته. لذلك فإنّ قطب الغيريّة الذي اكتشفه في منريسا هو مزدوج: الله والبشر. ومن وقتها ارتسم هنا جوهر روحانيّته: الله/الإنسان.

ج- لقاء الآخرين والصلاة هما، بالنسبة نفسها، مكان اختبار لله: وفي منريسا أيضًا، فهم أنّ الله ما زال في أيّامنا يسكن في العالم ويسعى فيه ويعمل، لذلك، فإنّ لقاء الآخرين في العالم يصبح هو والصلاة، وبالنسبة نفسها، اختبارًا لله: «فبعد اليوم، لم تعد الرغبة في مساعدة النفوس عنده مجرّد مسعى غَيريّ، ولا مجرّد تحقيق رغبته في الاشتراك في رسالة المسيح، بل لا تختلف عن سعيه المشغوف إلى الله، بعد أن أصبح على يقين من أنّ الله يمكن أن يُبحث عنه ويوجد في جميع الأشياء وفي كلّ لقاء»(٢).

٣- أورشليم: مشيئة الله تمرّ بوساطة الآخرين

أ- الآخَر الذي يثق به ثقة تامّة ومطلقة: بعد القيام باختبار منريسا، لم يفقد رغبته في قضاء حياة ترويضيّة نفسيّة أو بخدمة الله في أورشليم، لكنّه نظر إلى هذه الرغبة نظرة أشدّ شخصيّة. فقرّر أن يعيش الفقر، لا للتفوّق على فرنسيس أو عبد الأحد، بل للتعبير عن ثقته التامّة والمطلقة بالله: «ففي مطلع ١٥٢٣، قصد برشلونا من حيث كان مزمعًا أن يبحر.

(٢) JEAN-CLAUDE DHÔTEL, *Ignace de Loyola, un homme pour les autres*, Progressio, 1992 n° 4-5. p. 28.

تطوّع بعض الأشخاص لمرافقته، ولكنّه عزم أن يسافر وحده، لأنّ المهمّ عنده هو أن يكون الله ملجأه الوحيد... فلو أخذ رفيقًا لانتظر منه المساعدة إذا جاع، والنجدة للنهوض إذا سقط. ففيه يكون، والحالة هذه، قد وضع ثقته. أمّا هو فلا يريد أن يضع هذه الثقة وهذه العاطفة وهذا الرجاء إلّا في الله وحده. وكان قوله هذا يتجاوب تمامًا مع شعور قلبه. وبهذا الروح عينه، كان يرغب، لا في أن يُبحر بدون رفيق وحسب، بل بدون أيّ زاد أيضًا» (ص ٥٥-٥٦).

وذلك الفقر المطلق، تعبيرًا عن ثقته التامّة بالله، بقي إحدى ثوابت روحانيّته، وإن طرأ عليه تطوّر على مرّ السنين.

ب- الآخر الذي يكتشف فيه مشيئة الله ويطيعه: من الراجح أنّ اختبار رحلته الأساسيّ إلى أورشليم كان اكتشافه «أنّ مشيئة الله ليست مع بقائه في أورشليم». وضع لمجيئه هدفًا مزدوجًا: أن يزور الأماكن المقدّسة دائمًا، ليشاهد ويستوعب حياة يسوع، «وإلى جانب هذا العمل الدينيّ»، أن يساعد النفوس. نرى أنّ محبّة المسيح ترتبط دائمًا بخدمة الآخرين. لكنّ حارس الأراضي المقدّسة ورئيسها الإقليميّ رفض له أن يبقى هناك، لأنّ «ذلك لا يليق». فأجاب أنّ قراره ثابت جدًّا وأنّه يرى ألّا يجوز الرجوع عنه على الإطلاق... قال له الرئيس الإقليميّ إنّهم أُعطوا سلطة من قبل الكرسيّ الرسوليّ ليسفّروا مَن يرون بسفره مناسبًا، أو أن يُبقوا مَن يرون بقاءه مناسبًا... وإنّهم في الحالة هذه قد حكموا أنّه يجب ألّا يبقى إلخ. وأراد الرئيس الإقليميّ أن يريه الرسائل البابويّة التي تمنحه سلطة الحِرْم، فأجاب أن لا ضرورة لذلك وأنّه يصدّق حضراتهم. وبما أنّهم حكموا هذا الحكم بناء على السلطة الممنوحة لهم فهو يطيعهم (ص ٦٣).

«لم تعد الغيريّة هنا مزدوجة، البشر والله، بل غيريّة جدليّة، وهي هُويّته الأصليّة، أي أن يعبّر عن مشيئة الله بواسطة البشر. وقد استبطن وشخصن هذه الميزة العظمى التي تتّسم بها روحانيّته، بعبارة رمزيّة أشدّ

إيجابيّة من العبارة السابقة: مشيئة الله هي ألّا يبقى في أورشليم»[٣].

إنّ سيرة القدّيس إغناطيوس تعرض لنا عدّة أمثلة من تلك الوساطة البشريّة. وقد يكون قبوله رئاسة الرهبانيّة العامّة أحد أوضح هذه الأمثلة. فقد رفض مرّتين قبول المهمّة، ولكنّه قبلها بعد ذلك، لأنّ رفاقه أجمعوا على انتخابه، وأنّ معلّم اعترافه نصحه بالقبول. هذا وأنّ «اختباره الشخصيّ أصبح شاملًا في نذر الطاعة عند اليسوعيّين، إذ إنّ الرهبانيّة اليسوعيّة امتازت به عند تأسيسها، وهذا يعني أنّ الرؤساء يعبّرون، ولا شكّ، عن مشيئة الله»[٤]، ولا سيّما في ما يتعلّق بالرسالة.

ج- الأحداث شكلٌ آخر للغيريّة: لا يجد إغناطيوس الله ومشيئته في الآخرين وحسب، فهو لا يكتشف فيهم وحدهم هويّته الصحيحة، بل يجدها أيضًا في الأحداث. فتصبح وساطة الأحداث هي أيضًا تعبيرًا عن مشيئة الله. ولذلك يدعونا إلى «أن نبحث عن الله وأن نجده في جميع الأشياء».

عند عودته من أورشليم إلى إسبانيا، استأنف «مساعدة النفوس»، ولكنّه سرعان ما وجد نفسه مسجونًا، في مدينة القلعة، ثمّ في سَلَمنكه. وبعد أن قضى اثنَين وأربعين يومًا في سجن القلعة، «حضر كاتب المحكمة إلى السجن وقرأ عليه الحكم قائلًا إنّه حرّ. إلّا أنّ عليه وعلى رفاقه أن يلبسوا مثل سائر الطلبة. وبما أنّهم لم يُنهوا دروسهم، يجب ألّا يعودوا إلى الكلام على أمور الإيمان، مدّة أربع سنوات، ريثما يزداد علمهم».

ألقاه هذا الحكم في حيرة بما يجب عمله، إذ اعتبر أنّهم أغلقوا دونه باب الرسالة، من غير أن يقدّموا إليه حجّة سوى قلّة علمه. فقرّر أن يزور فونسيكا، رئيس أساقفة طليطلة، ويفوّض إليه أمره... «فأحسن رئيس الأساقفة استقباله. ولمّا عرف أنّه يريد الذهاب إلى سلمنكه، قال إنّ له

---

(٣) FADEL SIDAROUSS, «*Identité et altérité ignatiennes*», *Notes personnelles*, p. 1.

(٤) *Idem.*

هناك أصدقاء ومعهدًا وأنّ كلّ شيء هو في تصرّفه» (ص ٧٥-٧٦).

لكنّ الأمور لم تساعده على وجه أفضل، فوجد نفسه في السجن مرّة ثانية: «ورأى في البقاء بسلمنكه صعوبة كبيرة، وكأنّهم أغلقوا على النفوس باب الاستفادة... فقرّر الذهاب إلى باريس للدرس» (ص ٨١-٨٢).

كان متتعًا بهُويّته الرسوليّة، فساعدته الأحداث على أن يكتشف كيف يعيش هذه الهُويّة ويطوّرها.

نجد مثالًا آخر لوساطة الأحداث هذه في مجيئه إلى رومة، مع رفاقه، ليضعوا أنفسهم في تصرّف البابا. كانوا قد نذروا الذهاب إلى البندقيّة، ومن هناك إلى أورشليم لكي يُفنوا حياتهم في خدمة النفوس: «وكانوا قد قرّروا أيضًا أن ينتظروا مدّة سنة فرصة الإقلاع من البندقيّة. فإذا لم يكن، طوال هذه المدّة، من سفينة مُبحرة إلى الشرق، يكونون معفيّين من نذر السفر إلى أورشليم، فيذهبون ليقدّموا أنفسهم إلى البابا، إلخ» (ص ٩٢): «لمّا مضت السنة واتّضح أنّ السفر مستحيل، قرّروا أن يذهبوا إلى رومة، والسائح معهم في هذه المرّة» (ص ٩٩). إنّ الأحداث دفعت إغناطيوس إلى اتّخاذ قرارات لم يفكّر فيها في البدء.

II - مؤلّفات إغناطيوس

الرياضات الروحيّة واليوميّات والقوانين التأسيسيّة والرسائل

١- الرياضات الروحيّة: الدعوة إلى الانفتاح على الآخر، التي تؤدّي إلى الانفتاح على الآخرين

أ- الهُويّة والغيريّة في الرياضات الروحيّة: إنّ رغبة إغناطيوس في مساعدة النفوس وفي تعريف الآخر الذي لقِيَه والذي كشف له هُويّته الصحيحة حمله على تحرير كتاب الرياضات الروحيّة. فهنا أيضًا نرى بوضوح أنّه يستحيل علينا أن نعترف بهُويّتنا الخاصّة ونعيشها، إن لم نعترف بالآخر والآخرين، وإن أنكرنا الغيريّة.

نقول قبل كلّ شيء إنّ «الفوائد» التي يُستهلّ بها كتاب الرياضات الروحيّة قد تكون، بغضّ النظر عمّا يلي، موضوع دراسة في الهُويّة والغيريّة عند إغناطيوس. ففي هذه التعليمات التي تعرض لنا تعليمًا مفيدًا في المرافقة الروحيّة، نجد إلحاحًا شديدًا على احترام الآخر، سواء كان هذا الآخر الله نفسه أم الذي يُلقي الرياضات الروحيّة، وعلى حرّيّته. نكتفي هنا أن نستشهد «بالفائدة» رقم ١٥: «ففي أثناء الرياضات الروحيّة، من الأوفق، بل من الأفضل بكثير، في البحث عن مشيئة الله، أن يُشرك الخالق والسيّد النفس الأمينة في ذاته، معانقًا إيّاها في حبّه وتسبيحه، وجاعلًا إيّاها متأهّبة للطريق التي يمكنها أن تؤدّي إليه فيها أفضل خدمة في ما بعد. فليس للمرشد أن يلتفت أو يميل إلى جانب أو إلى آخر، بل يبقى في موقف متوازن بين الجانبين كالميزان، تاركًا الخالق يعمل مباشرة مع خليقته، والخليقة مع خالقها وربّها» (ر.ر. ١٥).

وفي تعليق على هذه «الفائدة»، يلفت فرنسوا كوريل النظر إلى أنّ «المرشد لا يجوز له على الإطلاق أن يتّخذ القرارات مكان المتروِّض، بل عليه أن يكون مستعدًّا لأن يتوارى، مكتفيًا بتوفير القوّة والنور، وبالمساعدة على تميز ما يعوق عن مشيئة الله، وعلى إزالته»(٥).

وفي تلك «الفوائد»، ومن دون أن نخرج من نطاق الاحترام الشديد الواجب لهويّة الآخر، نجد أساس ما يُسمّى في أيّامنا الانثقاق(٦). ذلك بأنّ إغناطيوس، في «الفائدة» رقم ١٨، يدعو إلى الانطلاق من حيث كان الآخر، من واقعه وثقافته، لننقل إليه على وجه أفضل رسالة الخلاص: «ينبغي أن تطبّق الرياضات الروحيّة على إمكانات مَن يمارسها - سنًّا

(٥) SAINT IGNACE DE LOYOLA, *Exercices Spirituels*, traduits et annotés par François Courel s.j., Collection Christus, *Textes 5*, Desclée de Brouwer, Paris, 1960. p. 21, note.

(٦) *Inculturation*: le processus par lequel le message éternel et universel de Jésus, adressé aux hommes et aux femmes de tous les temps et de toutes les cultures, doit s'exprimer dans les formes culturelles propres à ces hommes et ces femmes.

وثقافة وفهمًا - فلا يُلقى على غير المثقّف أو القليل الاستيعاب ما لا يستطيع أن يتحمَّله بدون مشقّة ولا أن يفيد منه. وهكذا يُلقى على كلّ واحد - بحسب ما أراد أن يكون متأهّبًا - ما من شأنه أن يساعده ويفيده...» (ر.ر. ١٨). في العام ١٩٧٨، بعث الأب بدرو أرّوبه برسالة إلى رهبانيّتنا كلّها في هذا الموضوع.

يُحدَّد أيضًا هدف الرياضات الروحيّة بالنسبة إلى آخر، وهو الله. وهذا ما يشير إليه فرنسوا كوريل بقوله: «إنّ السيطرة على النفس لإعادة النظام فيها هي إزالة جميع التعلّقات التي تعرقل نشاط قوانا الحرّ وتحول دون خضوعها للمشيئة الإلهيّة»(٧). من الواضح منذ البداية أنّ هدف الرياضات الروحيّة هو الوصول إلى الحرّيّة الباطنيّة اللازمة لاكتشاف مشيئة الله والعمل بها. وتحديد هدف الرياضات الروحيّة يليها ما يُسمّى الدعوة إلى الحفاظ على استعداد سابق مؤاتٍ نحو الآخر، وهو استعداد يدلّ مرّة أخرى على الاحترام الفائق الحدّ الذي كان إغناطيوس يكنّه للآخر: «لكي يجد كلّ من المرشد والمتروّض مزيدًا من التعاون والفائدة، يجب الافتراض السابق أنّ المسيحيّ الصالح لا بدّ أن يكون إلى تبرير فكرة القريب أسرع منه إلى الحكم عليها. فإن تعذّر عليه تبريرها، فليُسأل صاحبها كيف يفهمها. فإن كان فهمه غير صحيح، فليُصلح بحبّ. وإن لم يكن ذلك كافيًا، فليُبحث عن جميع الوسائل المناسبة لكي يفهم القريبُ الفكرة فهمًا حسنًا فيخلص» (ر.ر. ٢٢). في هذا التعليم، يدلّ إغناطيوس على مثال رائع لروح الحوار والانفتاح.

وفي المبدأ والأساس (ر.ر. ٢٣) تصريح أشدّ وضوحًا أيضًا بأنّ الإنسان ينال هُويّته من آخر، وهو الخالق، الذي خلقه ليسبّح الله ربّنا ويكرّمه ويخدمه، وبهذا يخلّص نفسه». وفي أيّامنا، نقول إنّ عبارة «خلّص نفسه» تعني تحقيق هُويّته الأصيلة. هذا وأنّ الإنسان يحقّق هذه الهُويّة أيضًا بصلته بالآخرين: الأشخاص والأشياء والأحداث. وكلّما احترم

(٧) *Idem*, p. 27, note 1.

الآخر بصفته آخر، استطاع أن يبقى في باطنه حُرًّا تجاه الآخر وأن يحترم حرّيته، وتمكّن من عيش الدعوة التي خُلق من أجلها.

لا شكّ على الإطلاق في أنّ الغيريّة الأساسيّة التي بالنسبة إليها يحدّد إغناطيوس هُويّته وهُويّة كلّ إنسان هي الله. ففي أثناء «الأسبوع الأوّل» من الرياضات الروحيّة، حين يدعونا إلى «التأمّل في خطيئتنا، يحثّنا على أن لا نحدّق النظر في أنفسنا، بل في المسيح المصلوب. ولكن، حين نشاهد محبّة ذلك الآخر الأمينة، نستطيع أن نكتشف بُعد خطيئتنا الصحيح، ولا سيّما القدرة الحقيقيّة على التوبة، وعلى فتح قلبنا لنداء الملك الأزليّ.

إنّ إغناطيوس أصبح إنسانًا من أجل الآخرين، حين شاهد أقانيم الثالوث الأقدس وانحدار المحبّة في شخص يسوع المسيح. وهو يرجو أن يساعدنا على أن نصبح نحن أيضًا أناسًا من أجل الآخرين، حين يطلبُ إلينا أن نشاهد الثالوث في «مشاهدة التجسّد». وفي ذلك يجعلنا نكتشف الآخرين والعالم والأحداث، بنظر الله والثالوث. إنّه نظر محبّة ليس له رغبة سوى «خلاص الجنس البشريّ». وتلك الرغبة هي التي حملت الأقانيم الثلاثة على «القضاء في أزليّتهم أن يتأنّس الأقنوم الثاني». وفي «المشاهدة لبلوغ الحبّ»، يقول لنا إغناطيوس: «أن نجعل الحبّ في الأفعال أكثر منه في الأقوال» (ر.ر. ٢٣٠). فنحن مدعوّون إلى أن نطلب نعمة «معرفة الربّ الباطنيّة لكي نحبّه ونتبعه على وجه أفضل»، لأنّ محبّة المسيح تحملنا على أن نتبعه في خدمة الآخرين، كما أنّ محبّة الآخر، أي الله، تفتحنا على محبّة الآخرين. إنّنا كلّما شاهدنا أسرار المسيح، نكتشف أنّ رغبتنا في الله ورغبتنا في مساعدة الآخرين هما شيء واحد، بما أنّنا نستطيع أن نبحث عن الله وأن نجده في لقاء الآخرين. ولذلك يجوز لنا أن نقول بأنّ الرياضات الروحيّة تجعلنا نكتشف أنّ «الحياة الرسوليّة لا تنبثق من الرغبة في نقل المسيح إلى الآخرين وحسب، بل من اكتشاف المسيح عند الآخرين أيضًا»[٨].

---

(٨) JEAN-CLAUDE DHÔTEL, *op. cit.*, p. 29.

ب- عرفان الجميل في الرياضات الروحيّة: إنّ اختبار إغناطيوس الآخر، أي الله، وصلته به أوصله إلى شعور شديد بعرفان الجميل. لا شكّ في أنّ المراجع الصريحة محدودة، ولكنّ عرفان الجميل، على مستوى أعمق، هو رئيسيّ بالنسبة إلى ديناميّة الرياضات الروحيّة وسياقها، وإلى اختبار المتروّض الله. وهذا ما يُرى بوضوح في النعمة الختاميّة التي تُطلب في الرياضات الروحيّة، تلك النعمة التي تلخّصها جميعها وتلخّص اختبار ثلاثين يومًا في الصلاة والعزلة: «أطلب ما أريد. وهنا أطلب معرفة كلّ ما نلته من الخير معرفة باطنيّة، حتّى إذا اعترفت بذلك تمامًا، أستطيع أن أحبّ عزّته الإلهيّة وأخدمها في كلّ شيء» (ر.ر. ٢٣٣).

ما يملأنا عرفان جميل هو معرفة الخيرات الكثيرة التي نلناها. وهذه الصلاة هي بلوغ ذروة الرياضات الروحيّة وخلاصة الروحانيّة الإغناطيّة. فإنّ معرفة عطايا الله الباطنيّة تؤدّي إلى عرفان الجميل، وهو بدوره يؤدّي إلى محبّة الله وإلى الرغبة في خدمته. كان إغناطيوس، كما سبق ذكره، قد أشار، في مطلع هذه المشاهدة، إلى أنّ «الحبّ يُجعل في الأفعال» وأنّ «الحبّ يقوم على الهبة المتبادلة» (ر.ر. ٢٣١). كتب جورج غانْسْ في تعليقه على هذه المشاهدة: «ينشأ الحبّ عامّةً من عرفان الجميل. فالعاشق يهب لحبيبته، والحبيبة، التي تعترف برأفة الواهب، تختبر عرفان الجميل ومزيدًا من الحبّ له»[٩]. وبهذا الحبّ وبعرفان الجميل هذا، إلى جانب رغبة في الخدمة، يُدعى المتروّض إلى تلاوة صلاة التقدمة التي وضعها إغناطيوس: «خذ، يا ربّ». إنّها صلاة توكّل وسخاء تامّ. إنّها صلاة القلب المعترف بالجميل الذي يرى في كلّ شيء عطيّة تُقاسَم.

لكنّ عرفان الجميل ليس مجرّد نعمة تُختبَر في نهاية الرياضات الروحيّة. فطوال القيام بهذه الرياضات، يختبر المتروّض عرفان الجميل لله نظرًا إلى عطاياه، نظرًا إلى محبّة الله في المبدأ والأساس، ونظرًا إلى أمانة

(٩) GEORGE GANSS, ed., *Ignatius of Loyola*, New York: Paulist Press, 1991, p. 418, n° 109.

الله ورحمته في الأسبوع الأوّل، ونظرًا إلى دعوة الله في الأسبوع الثاني، ونظرًا إلى الفداء الذي نحصل عليه بفضل آلام المسيح وقيامته في الأسبوعين الثالث والرابع.

إنّ المراجع الصريحة إلى عرفان الجميل في الرياضات الروحيّة محدودة إذًا، لكنّها توحي بأنّ عرفان الجميل، القائم على الاعتراف بمحبّة الآخر ورأفته، هو ديناميّة مهمّة في سياق الرياضات الروحيّة من نعمة إلى نعمة. فإنّنا ننتقل من عرفان الجميل لمحبّة الله إلى اختبار عرفان جميل للمغفرة، إلى اختبار عرفان جميل للدعوة إلى التعب مع يسوع والمشاركة في سرّ الفصح، بقبولنا أن نموت ونقوم مع يسوع، لأنّنا بتفكيرنا في جميع تلك النِعَم وتلك العطايا الإلهيّة في المشاهدة الختاميّة نمتلئ عرفان جميل ورغبة مجدّدة في حبّ الله وخدمته في كلّ شيء.

ج- عرفان الجميل في أساس استعراض التأمّل وفحص الضمير:
قبل أن نختم البحث في الرياضات الروحيّة، هناك مرجعان إلى عرفان الجميل يهمّنا أمرهما لنفهم روح إغناطيوس وروحانيّته. الأوّل هو استعراض التأمّل. يشجّع إغناطيوس المتروّض على قضاء بضع دقائق بعد كلّ فترة صلاة في استعراض نِعَم الصلاة وأوقات الانبساط والانقباض وتلبية الشخص ومقاومته، من دون أن يُهمل الأمانة لطريقة الصلاة ومدّتها. وفي نهاية هذا الاستعراض، يقترح أن يشكر الله: «إن كانت حسنة، أشكر الله ربّنا، وأسير مرّة أخرى على الطريقة نفسها» (ر.ر. ٧٧). من المهمّ، بعد الصلاة، أن يُشكر الله على النِعَم التي نالها المتروّض وعلى ما عمل الله فيه. فإنّ عرفان الجميل يستبطن النِعَم ويوحّد الشخص في العمق بالله مانح جميع العطايا.

والمرجع الثاني إلى عرفان الجميل نجده في مطلع فحص الضمير الذي يقترحه إغناطيوس في الأسبوع الأوّل من الرياضات الروحيّة. فأولى النقاط الخمس التي يقترحها للقيام بفحص الضمير هي «أن يشكر الإنسانُ الله ربّنا على ما نال من الإحسانات» (ر.ر. ٤٣). ثمّ يلتمس النعمة لمعرفة

خطاياه، ويحاسب نفسه، ويستغفر الله، ويعقد النيّة على إصلاح نفسه بنعمة الله. فإغناطيوس يستهلّ هذه الممارسة بالشكر، ونرى أنّ الاعتراف بالخطايا والتوبة وعقد النيّة على إصلاح النفس تتأصّل في شعور عميق بعرفان الجميل لله على جميع عطاياه.

إنّ هذا الاعتراف بعطايا الله، ومحبّة الآخر الذي يغمرنا بنعمه، إلى جانب باقي فحص الضمير، هي، في نظر الكتّاب الروحانيّين، طريقة في تمييز يوميّ لعمل الله ونداءاته، وتدفعنا إلى تلبيتها بأمانة.

٢- يوميّات إغناطيوس الروحيّة: قائمة الإحسانات التي نالها من الله والشكر الدائم

إنّ موضوع عرفان الجميل والشكر هو حاضر في جميع صفحات اليوميّات، وهو السبب الذي دفع إغناطيوس إلى حفظ يوميّات لاختباراته الإلهيّة. يرى أدولف هاس (Adolf Haas) أنّه «كان يريد بوجه خاصّ أن يدوّن النِعَم التي نالها لكي يكون ذلك عمل شكر شخصيًّا»[١٠]. ونجد عند أرتورو كودينا (Arturo Codina)، في مقدّمته لطبعة اليوميّات الأولى المحقّقة والمعلّق عليها، الملاحظة نفسها. فقد كتب: «إنّ هذه اليوميّات هي قائمة الإحسانات التي نالها أبونا إغناطيوس من الله، وقد حرّرها بسبب عرفان جميله الشديد لله وللناس. فعل ذلك، لا ليثبّتها في ذاكرته وحسب، بل ليُضرم قلبه أيضًا بحبّ يزداد يومًا بعد يوم للذين أحسنوا إليه، كلّما أعادوا قراءة تلك الإحسانات»[١١].

في النهاية، يمكننا القول إنّ إطار صلاة إغناطيوس واختباراته التصوّفيّة التي دوّنها في اليوميّات لا يُستهان به. إذ إنّ أكثريّة الاختبارات التصوّفيّة التي وصفها تمّت في صلاة الصبح، بما فيها الإفخارستيّا. ذلك

---

(١٠) ADOLF HAAS, «The Mysticism of St. Ignatius according to His Spiritual Diary», in *Ignatius Loyola: His Personality and Spiritual Heritage, 1556-1956*, ed. Friedrich Wulf SJ, St. Louis: Institute of Jesuit Sources, 1977, p. 165.

(١١) Cité par HAAS, dans «The Mysticism of Ignatius...», p. 166, n° 5.

بأنّه، في اليوميّات الروحيّة، يدوّن ويُشرك كلّ نعمة تصوّفيّة نالها بالقدّاس الذي أقامه في ذلك اليوم. فلا يصعب علينا أن نلاحظ الربط بين عاطفة عرفان جميله ودور الإفخارستيّا المركزيّ في حياته التصوّفيّة.

ففي اليوميّات، يمرّ عرفان الجميل للآخر، أي لله، بعرفان الجميل للآخرين، أي للمحسنين. وهكذا نرى أنّ إغناطيوس يجد الله في كلّ شيء وكلّ شيء في الله.

٣- القوانين التأسيسيّة للرهبانيّة اليسوعيّة: القسم الرابع: عرفان الجميل للمحسنين

لقد أثبتنا أنّ عرفان جميل إغناطيوس لم يقتصر على الله، بل امتدّ أيضًا إلى العديد من المحسنين الذين ساندوه في سني تنقّله ودرسه، وساندوا في وقت لاحق الرهبانيّة اليسوعيّة. إنّ عرفان الجميل هذا، والاعتراف بدور الآخرين في حياته وحياة رهبانيّتنا، نجده بوجه خاصّ في رسائله وفي القوانين التأسيسيّة للرهبانيّة اليسوعيّة.

إنّ قسم هذه القوانين الذي يبحث بوجهٍ صريح في عرفان الجميل هو القسم الرابع الذي يعالج موضوع مدارس رهبانيّتنا وجامعاتها. يستهلّ إغناطيوس هذا القسم بفصل في عرفان الجميل الذي يتوجّب علينا أن نؤدّيه إلى واقفي المدارس والمحسنين إليها: «بما أنّه من العدل من قِبَلنا أن نتجاوب مع التقوى والكرم اللذين أظهرهما المعاونون الذين اختارهم الصلاح الإلهيّ ليقف المدارس ويخصّص لها دخلًا، يجب أن يقام قدّاس كلّ أسبوع على الدوام وفي كلّ مدرسة، لواقفيها والمحسنين إليها من أحياء وأموات» (ق.ت. ٣٠٩).

كتب أنطونيو دي ألداما (Antonio de Aldama)، في تعليقه على القوانين التأسيسيّة، أنّ إغناطيوس يعتبر الواقفين والمحسنين من وجهة نظر عرفان الجميل المتوجّب لهم فقط. إنّ عرفان الجميل هو إحدى أميَز فضائله.

٤- رسائل إغناطيوس: إغناطيوس في أفضل مظاهره، مظهر عرفان الجميل

في ١٨ آذار (مارس) ١٥٤٢، كتب إغناطيوس إلى سيمون رودريكز، أحد رفاقه الأوّلين: «أرى، برأفته تعالى وإلّا بإعلام أفضل، أنّ عدم عرفان الجميل هو، بين جميع الشرور والخطايا التي يمكن تصوّرها، أحد الأكثر استيجابًا للمقت أمام خالقنا وربّنا، وأمام المخلوقات التي صنعها لمجده الإلهيّ والأزليّ. فإنّ هذا الشرّ هو تجاهل الخيرات والنِعَم والعطايا التي ينالها الإنسان، وهو سبب كلّ شرّ وكلّ خطيئة ومبدأهما ومصدرهما. وعلى عكس ذلك، ففي السماء وكذلك على الأرض، ما أجدَر عرفان الجميل والاعتراف بالخيرات والعطايا بالحبّ والتقدير» (رسائل ١٥).

وفي التقديم لهذه الرسالة، كتب الأب جرفيه دوميج (Gervais Dumeige): «لم يكتفِ إغناطيوس بممارسة عرفان الجميل إلى حدّ بعيد، بل أحبّ أن يرى أعضاء رهبانيّتنا يحفظون هذه الفضيلة. فإنّ سخاء الله وكرم الناس هما في نظره، على السواء، حثّ على الشكر ودعوة إلى الحمد. كيف نستطيع أن نُظهر هذا الشعور على وجه أفضل من أن نحاول التوفيق بين مُحسنَين عزيزَين بالقدر نفسه على رهبانيّتنا، ولكنّهما في خلاف متبادل؟»[١٢].

حرّر إغناطيوس سبعة آلاف رسالة تقريبًا، جُمعت في اثنَي عشر مجلّدًا. فلا نستطيع أن ندّعي تقديمًا تامًّا لعرفان الجميل في الرسائل السبعة آلاف. إذ نكتفي بذكر بضعة أمثلة، ابتداءً بالرسالة إلى سيمون رودريكز التي استشهدنا بها. وهناك أمثلة أخرى نجدها في الرسائل الخمس والعشرين التي بعث بها إغناطيوس إلى المحسنين. ولقد جمعها هوغو راهنر (Hugo Rahner) وقدّم لها بأفكار عميقة في قلب إغناطيوس

(١٢) IGNACE DE LOYOLA, *Lettres*, Traduction et commentaire de Gervais Dumeige SJ, Collection Christus, *Textes*, Paris 1958, pp. 77-78.

وعقله. وممّا كتبه: «إنّ هذه الرسائل تكشف لنا إغناطيوس في أفضل مظهر، وهو التعبير عن عرفان جميله»[١٣].

إليكم رسالته المؤرّخة في ١٥٣٢ إلى إيزابيل روزِر (Isabel Roser): «أرجو من رأفته تعالى... ألّا يدعني أقع في عقاب عدم عرفان الجميل، إن جعلني جديرًا بالقيام بعمل ما لخدمة جلاله الإلهيّ وتسبيحه... فإنّ الله ربّنا يُلزمنا بأن يفوق نظرنا وحبّنا للمعطي نظرنا وحبّنا للعطاء، ليكون حاضرًا في كلّ حين لأعيننا وأنفسنا ولأعماق كياننا» (رسائل ٣).

وفي ١٣ آذار (مارس) ١٥٥٤، كتب إلى دونّا ماريا فْرَسّوني دل جِسّو (Donna Maria Frassoni del Gesso): «أجبت في الأيّام الأخيرة عن رسالة سيادتك المؤرّخة في ١٥ شباط (فبراير). وبعد هذا التاريخ، تسلّمت رسالة أخرى تاريخها ١٨ كانون الأوّل (ديسمبر)، وصلني معها تبرّع وصَدَقة من قِبَلك، سُررنا بكلّ ذلك أشدّ سرور، فلقد رأينا فيه التقوى والمحبّة اللتين أوحيتا إليك بإرساله. إنّ الله الذي في سبيل محبّته نعمل وننال كلّ شيء معظّم، يعرف كيف يكافئكِ بسخاء كبير من قِبَلنا ومن قِبَل جميع نقرائه» (رسائل ١١٨).

III – خواطر ختاميّة في عرفان الجميل عند إغناطيوس

تكشف لنا مؤلّفات إغناطيوس أنّ عرفان الجميل هو موضوع أساسيّ ومعاوِد في روحانيّته وعنصر تمييزيّ لاختباره الله. ما هو الذي يمكّننا من تأكيد ذلك؟

١) أوّلًا، نجد، في صميم اختبار إغناطيوس الله، اختبارًا عميقًا لعطيّة الخلْق، يتأصّل في اختباره الكَردونر (Cardoner)، ويندمج في المبدأ والأساس، ولا سيّما في «المشاهدة لبلوغ الحبّ» في ختام الرياضات الروحيّة. كان إغناطيوس يعتبر كلّ شيء عطيّةً من الله، عطيّة يجب

(١٣) HUGO RAHNER, *St. Ignatius Loyola: Letters to Women*, trans. Kathleen Pond et S.A.H. Weetman, New York: Herder and Herder, 1960, p. 170.

الترحيب بها ومقاسمتها. كلّ شيء يأتي من الله وكلّ شيء يعود إلى الله. وهذا الشعور بأنّ كلّ شيء عطيّة هو الذي يُبرز عاطفة عرفان الجميل عند إغناطيوس. وكان عرفان الجميل هو الذي يحفظ إغناطيوس في صلة بعطيّة الحياة، وفي النهاية بالله مانح جميع العطايا، فكان يعمّق عنده علاقة الارتباط والتوكّل التامّ. كان إغناطيوس لا يرى كلّ شيء عطيّة من الله وحسب، بل يرى أيضًا الله مقيمًا وعاملًا في هذه العطايا، فيجد الله مانح كلّ عطيّة في جميع الأشياء. وكان مقتنعًا اقتناعًا شديدًا بأنّ أتعابه وعمله هي التعب والعمل مع المسيح الذي يتعب ويعمل في العالم. فكان هذا الاقتناع يوحّده بالله في اتّحاد مشاهدة بوسط نشاطاته.

٢) ثانيًا، إنَّ عدم الانحياز الإغناطيّ أو الحرّيّة الباطنيّة تصدر عن حسّ العطاء وعرفان الجميل. وإذا كان ممكنًا أن يوثق بأمانة المعطي وتُترك له الحرّيّة، فلأنَّ كلّ شيء يُعتبَر عطيّة. إنّ العطايا غير المرتبطة بأحد المُعطين تصبح أملاكًا وتعلّقات متحرفة ومواضع عدم حرّيّة يتمسّك الإنسان بها. فالشخص الذي يعرف الجميل هو شخص حرّ لأنّه يحصل على كلّ شيء باستمان، ولا يخلط أبدًا بين العطيّة والمعطي. والتجربة هي أن يعتبر كلّ شيء طبيعيًّا وحقًّا وملكًا خاصًّا. فحين يحصل ذلك، لا تعود الحياة تفاجئنا ولا تثير إعجابنا.

٣) ثالثًا، يرتبط تشديد إغناطيوس على عرفان الجميل بالتزامه وحبّه الفقر، وبرغبته في عدم تملّك أيّ شيء، وبارتباطه التامّ بالله في كلّ شيء. وهذا الفقر بالروح والرغبة في الفقر الفعليّ ينبثقان من اختبار الكردونر الذي كان يحمل إغناطيوس على اعتبار كلّ شيء عطيّة من الله. فاليوميّات الروحيّة تشدّد على أهمّيّة عرفان الجميل في اختباره التصوّفيّ لله. ذلك بأنّ المقصود في اليوميّات هو تثبيت قرار في شأن الفقر في رهبانيّتنا. ففي نظر إغناطيوس، هناك صلة ترويضيّة نفسيّة عميقة بين عرفان الجميل والفقر. والاعتراف بأنّ كلّ شيء هو عطيّة حرَّر إغناطيوس من تعلّقاته ومن الحاجة إلى التملّك وإلى تكديس الخيرات، كما أنّ فقره قوّى ارتباطه بإحسانات الآخرين وزاد عرفان جميله لكرمهم.

إنّ عرفان الجميل يوسّع القلب أيضًا ويفتح الشخص لعطاء الحقيقة كلّها. فإنّ الاختبار العميق لعرفان الجميل لا ينسجم مع ضيق العقل أو السلبيّة أو مركزيّة الذات. كان إغناطيوس يبحث عن السخاء عند الذي يقوم بالرياضات الروحيّة، لا عن أجوبة موزونة إلى أقصى حدّ، بل عن رغبة في كلّ مخاطرة لاتّباع المسيح. وصلاة ختام الرياضات الروحيّة، «خذ واقبل»، هي صلاة قلب سخيّ منفتح، نال كلّ شيء عطيّةً ويردّه بحرّيّة، مكتفيًا بالتماس عطيّة الحبّ الأخيرة ونعمة الله. إنّ كرم الأخلاق وشهامة القلب - التوّاق إلى القيام دائمًا بالمزيد - هما الصفات التي تتطابق مع إغناطيوس. وهما أيضًا صفات شخص يفيض عرفانٌ جميل لعطايا الله ولإحسانات الآخرين.

وأخيرًا، فإنّ الروحانيّة الإغناطيّة اعتُبرت دائمًا روحانيّة مركّزة على العمل. ففي نظر إغناطيوس، يظهر الحبّ في الأفعال أكثر منه في الأقوال، إذ إنّ إغناطيوس كانت تحرّكه الرغبة في خدمة الله وتمييز مشيئته والعمل بها. ولذلك، فإنّ التصوّف الإغناطيّ ليس هو، قبل كلّ شيء، تصوّفًا يقوم على الاتّحاد العاطفيّ، بل هو تصوّف قائم على الخدمة. ونذكّر بالنعمة الأخيرة التي يطلبها المتروّض في الرياضات الروحيّة: «وهنا أطلب معرفة كلّ ما نلته من الخير معرفة باطنيّة، حتّى إذا اعترفت بذلك تمامًا، أستطيع أن أحبّ عزّته الإلهيّة وأخدمها في كلّ شيء» (ر.و. ٢٣٣).

يشدّد إغناطيوس على ممارسة فحص الضمير مرّتين في اليوم. ولقد سبق لنا القول إنّ خطوة هذا الفحص الأولى هي أن نشكر لله عطاياه وإحساناته. وقد يكون إغناطيوس مقتنعًا، من غير أن يشعر، بأنّ الإنسان، إن توقّف مرّتين في اليوم ليشكر الله، سينمو في تلك الحرّيّة وشهامة القلب والرغبة في الخدمة التي يمتاز بها تلميذ المسيح الحقيقيّ. من هذا القبيل، يستطيع إغناطيوس أن يعلّم المسيحيّين أمورًا كثيرة تتعلّق بصلتهم بالله، وبأهمّيّة عرفان الجميل من أجل تنمية هذه الصلة.

الخاتمة

لم يترك إغناطيوس بحثًا في مكان الآخر أو في حسّ عرفان الجميل في الحياة الروحيّة، بل عاش اختبار الآخر الإلهيّ بعمق في حياته، ولقد تأثّر به، حتّى إنّه أراد أن يساعد الآخرين على عيش اختبارهم الخاصّ ذلك الآخر الإلهيّ. وهذا الآخر الإلهيّ هو الله الخالق والآب المُحبّ الذي يغمرنا بجميع العطايا. وبعد أن حرّكه الحبّ الإلهيّ، اكتشف هُويّته الخاصّة، هويّة الخادم، التلميذ الذي يسير في خطى المسيح، بوضع نفسه في تصرّف إخوته وأخواته. واختبار الله الذي قام به إغناطيوس هو تصوّفيّ، لكنّه قائم على تصرّف الخدمة والعمل. وهو اختبار التجلّي بحيث يرتبط اختبار مجد يسوع باختبار آلامه وموته، وبذل نفسه لخلاص البشر. فإنّ عرفان الجميل الذي يشعر به نحو الله والآخرين، يُترجم بالرغبة في العمل وبالالتزام بالمسيح. هذا ما يحاول أن يُشرك فيه الآخرين، ضمنًا في الغالب، عبر مؤلّفاته. وهذا ما هو في قلب روحانيّته.

ولكي نكتشف حسّ الغيريّة الممثّلة بالوساطات البشريّة والحدثيّة التي سبق الكلام عليها، ترك لنا إغناطيوس أداةً مفضّلة، وهي التميز الروحيّ الذي يمكّننا من البحث عن مشيئة الله وعن وجودها عَبرَ قراءة الوساطات، بصفتها قطبًا غيريًّا.

وفي الختام، فإنّ جدليّة الهُويّة/الغيريّة تنشأ في ديناميّة واغتناء لا يتوقّفان: من جهة، نرى أنّ الهُويّة الإغناطيّة هي دائمًا في اتّجاه وانجذاب نحو الغيريّة؛ ومن جهة أخرى، نرى أنّ الغيريّة (الآخر الإلهيّ والآخرين عَبرَ وساطات مختلفة) تكوّن، كما حاولنا أن نظهره، الهُويّة الإغناطيّة.

نقلها إلى العربيّة
الأب صبحي حموي اليسوعيّ